

أخبار ابن وهبون وبقية أشعاره* (القسم الأول)

يقلم الاستاذ: مبارك الحضراوي

المقدمة :

أ - الموضوع :

لا نكاد نعرف من الشعراء العرب القدامى تقريبا سوى المشاهير منهم أصحاب الدواوين المطبوعة التي اعتنى بها الباحثون دراسة وتقدا، فأبدع بعضهم في بعض جوانبها إلى حد الطرافة، ونَبَّهوا غيرهم على مواطنٍ فيها كانت خفية، واكتفى غيرهم من الدارسين بتقليدهم وصياغة أفكارهم في أشكال مختلفة لا تضيف جديدا إلى الأدب العربي.

وكان أولى هؤلاء الدارسين المقلدين أن يوجهوا عنايتهم إلى مجموعة هائلة من الشعراء المغمورين الذين ضاعت دواوينهم، وتناثرت أشعارهم في بطون المصادر ومظانها أو بقيت مخطوطة في رفوف المكتبات العربية والأجنبية. ذلك أن ما لدينا من دواوين شعرية على كثرتها لا يمثل المدونة الشعرية العربية بل هو جزء من كل ما يزال في حاجة إلى بحث وتنقيب لغزارة التراث الشعري عند العرب.

لذلك أثرنا في هذا البحث المتواضع حجما ومحتوى أن نعتني بأحد الشعراء الأندلسيين المغمورين حتى نجعل الغبار عنه، ونجذب من سيهتهم به بعدنا عنا البحث عن أشعاره المتفرقة في مصنفات الأدب ومنتخباته.

فتم اختيارنا على القرن الخامس الهجري الذي راجت فيه سوق الأدب في الأندلس في ظل حكم ملوك الطوائف، ومنهم بنو عباد في إشبيلية الذين اهتموا بالشعر اهتمامهم بالسياسة، فقمروا الشعراء وأجزلوا لهم العطاء، فنبت فيهم شاعر من أهل مرسية طراً على إشبيلية يطلب العلم والمجد والجاه. فمن يكون هذا الشاعر ؟

إنه عبد الجليل بن وهبون الذي أردناه موضوعاً لهذا البحث بعنوان «أخبار ابن وهبون وبقية أشعاره».

ولسائل أن يسأل لم الاهتمام بابن وهبون دون سواه، وغيره من الشعراء المغمورين كثيرون ؟

ب - دواعيه :

تبدو دواعي الاهتمام بابن وهبون كثيرة، ولعل من أبرزها ضياع تصنيف ابن بسام المسمى «كتاب الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل»، ومن حسن حظ الباحثين أن خصص له صاحب الذخيرة في مدونتته الكبرى فصلاً لا يستهان به، ذكر فيه بعض أخباره، وأثبت جملة من أشعاره. لكن مع ذلك يبقى شعر ابن وهبون مشتتاً في مصادر الأدب الأندلسي، مما يستدعي جمعه وتحقيقه.

ولم نر لأحد من الدارسين والباحثين تصنيفاً جمع فيه أشعار ابن وهبون وذكر أخباره سوى اثنين من المهتمين بالأدب الأندلسي في المشرق (*) أملاً أن تجمع أشعاره يوماً. وخصه كل واحد

(*) بحث قدم في سبتمبر 1985، لنيل شهادة الكفاءة في البحث بعنوان «أخبار ابن وهبون وبقية أشعاره» أمام لجنة تكوّن من الاساتذة: جمعة شيخة: رئيساً، صالح البكاري: مشرفاً، أبو بكر بلحاج: عضواً

منهما بدارسة كانت الأولى ضمن مجموع والثانية مستقلة. وهما دراستان لا تعطيان الشاعر حق قدره لأنهما لم تأتيا على كل جوانب أخباره ولم تشتملا على كل أشعاره. ولا حظنا أيضا ونحن نمارس شعر ابن عباد وابن حمديس وابن خفاجة أن لهم رابعا به تتضح أشعارهم، إذ كان لهم صديقا وجليسا، كثيرا ما تردد اسمه في المراجع التي أوردت شعرهم، ولكننا لا نعرف عنه شيئا ولا نحفظ له قسما. فهذه الدواعي مجتمعة حدت بنا إلى محاولة جمع أخباره وتحقيق أشعاره ودراستها مساهمة منا في إثراء المكتبة الأندلسية والتعريف بشاعر له قيمته ولكنه بقي مغمورا لدى الباحثين والمختصين.

ج - المنهج :

حرصنا في المرحلة الأولى من البحث على التعريف بالشاعر باعتباره مغمورا، وتحديد ملامح حياته وأطوارها، وذكر أبعاد رحلته إلى إشبيلية، وعلاقاته بشعراء عصره وذوي الجاه والسلطان، ورسم شخصيته من خلال أخباره، وتحديد سنة وفاته. أما في المرحلة الثانية من البحث فسينا إلى بيان أسباب إعادة جمع أشعاره بعد محاولة ابن بسام التي لم نعرش عليها، فأبرزنا عدد الأبيات المتحصل عليها موزعة على عدد قطعها، ثم سعيانا إلى بيان الملامح العريضة لمجموع أشعاره على مستوى المبنى والمعنى والأغراض. وتلمسنا من خلال ذلك شاعريته ومواقفه وآراء القدامى والمحدثين في شعره. ولا ندعي لهذا الجانب من البحث الإحاطة والشمول بل يبقى في نظرنا فاتحة لدراسة أعمق وأشمل لمن أراد أن يهتم بأخبار ابن وهبون وشعره.

وفي مرحلة ثالثة جمعنا الأشعار وحققناها معتمدين الطريقة التالية :

- ذكر المناسبة أو الموضوع في طالع المقطوعة.

- ذكر بحرهما بين قوسين.

- ترتيب الأشعار على القوافي : المضموم منها فالمفتوح فالمكسور فالساكن، فما وصل

بالحاء.

- ترقيم الأبيات وشكل النص.

- تخريج الأبيات اعتمادا على التسلسل التاريخي مع مراعاة أكثر المصادر إيرادا لأبيات

المقطوعة.

- ذكر اختلاف الروايات وإثبات الرواية التي تلائم المعنى أكثر من سواها.

- تخصيص باب للتعليق، شرحنا فيه بعض الألفاظ، وأشرنا فيه إلى مواطن التضمين أو

الخلل في الرواية اعتمادا على هوامش تدل عليها أرقام الأبيات.

د - المصادر :

بدأ شعر ابن وهبون متناثرا في بطون المصادر والتراجم الأندلسية وكتب الدراسات الأدبية. والناظر في تخريج المقطوعات يلاحظ غزارة هذه المصادر والمراجع، مما لا يدع مجالا للشك في سيورة أشعاره عبر القرون، وقيمتها الأدبية والفنية.

ولعل الجدول المصاحب الذي وزعنا فيه المقطوعات على مصادرها ومراجعتها يوضح ذلك،

إذ أنه يشير إلى عدد القطع وتواترها في المصادر والمراجع الحديثة، ولكنه لا يضبط عدد الأبيات في كل واحد منها، ذلك أنه تمت الإشارة إليها في التخرّيج.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن بسام في الذخيرة أورد له 370 بيتاً، في حين أورد له صلاح خالص وهو من المحدثين 226 بيتاً من مجموع مدونته التي عثرنا فيها على 459 بيتاً. وقد كانت أغلب المصادر تنقل عن بعضها. ونادراً ما ينفرد مصدر منها بمقطوعة. وأما المراجع فهي تنقل عن المصادر في تحريف كبير أحياناً. ويتجلى ذلك خاصة فيما أورد له محمد مجيد السعيد وصلاح خالص. وقد نبهنا على ذلك في اختلاف الروايات.

الفصل الأول : أخبار ابن وهبون :

أخبار ابن وهبون :

- 1 - اسمه وكنيته : أجمعت المصادر التي ترجمت له على أن اسمه الكامل هو أبو محمد (1) عبد الجليل بن وهبون المرسى (2) الأندلسي (3) المعروف بالدمغة (4).
- 2 - ملامح حياته وأطوارها : لم نعثر فيما عدنا إليه من مصادر قديمة ، سواء أكانت أدبية أم تاريخية ، على إشارة إلى تاريخ ولادته ، وإن كان اثنا (5) من المعاصرين حاولا التعريف به ، وحصرا ذلك فيما بين سنة 1038/430 وسنة 1048/440. تقريبا لا يقينا. وإن سلمنا بهذا التخمين تكون ولادته أيام بني طاهر الذين حكموا مملكة مرسية (6) باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية (7) وبالتحديد زمن أبي بكر بن طاهر الذي حكم من سنة 1037/429 إلى سنة 1053/445 (8) :

أ - مكانها :

أجمعت المصادر التي عدنا إليها قديمها وحديثها على أنه ولد بشرق الأندلس وبالتحديد بمرسية ، وإن لم يرد ذكرها في ما أمكننا جمعه من بقية أشعاره. ورغم ذلك فقد كان دائم التعلق بها والحنين إليها « وكانت له كل عام رحلة يتعهد فيها بلده وأهله » (9). ولم نعثر في هذه المصادر على أخبار تساعدنا على معرفة تربته الأولى ونشأته بها ولا عن تعلمه وشيوخه.

-
- (1) لم ترد هذه الكنية في الضبي: البغية: 374، والمراكشي المعجب: 102، وابن شاعر: فوات 249/2.
 - (2) ابن خاقان: القلائد 278، وابن بسام: الذخيرة ق 2 / 1 م / 473، والضبي: البغية 374، وابن شاعر: فوات: 249/2، وابن خلكان: الوفيات: 426/4.
 - (3) ابن خلكان: الوفيات: 124/1.
 - (4) ابن بسام: الذخيرة ق 2/م/479، والسلفي: الأخبار 19، وياقوت: البلدان 518/1، وابن شاعر: فوات 249/2.
 - (5) فروخ: أدب / 663، ودائرة المعارف 987/3.
 - (6) مرسية: قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم على نهر كبير، ولها جامع جليل وحمامات وأسواق عامرة في مستور من الأرض. وعليها وعلى أرضها أسوار، وهي على ضفة النهر (الحميري: صفة جزيرة الأندلس 181-182).
 - (7) بلنسية: مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس، بينها وبين البحر ثلاثة أميال، سورها مبني بالحجر والطوايبي، ولها أربعة أبواب، وكان الروم تغلبوا عليها قديما ثم أحرقوها عند خروجهم منها سنة 1101/495، فرثاها ابن خفاجة وابن خلصة البلنسي (الحميري: الصفة: 47-48).
 - (8) عنان: دول 435.
 - (9) ابن بسام: الذخيرة ق 2 / 1 م / 475.

ب - أسرته :

أغفلت كتب الأدب والتاريخ والأعلام التي اعتمدناها الحديث عن أسرته، ولكن بعض المحدثين يرى أنها : « أسرة فقيرة متواضعة » (10) لن تبرز « أهميتها إلا في مستقبل حياة الشاعر » (11) الذي سينفض عنها غبار النسيان، وسيشق لنفسه بنفسه طريق المجد والشهرة في عصر « كان الشاعر أو الأديب لا يُلَفَت اهتمام مؤرخي الأدب ورواته إلا إذا كان أرسقراطيا، أو حظي بالعناية والاهتمام في أوساط الخاصة من الأمراء والوجهاء » (12).

ولعلَّ إحساس الشاعر بانتسابه إلى هذه الأسرة المتواضعة المغمورة، ولَد فيه التوق إلى حياة مغايرة هي مزيج من ارسقراطية فكرية ومادية، ترضي طموحه المادي الاجتماعي (13). فكيف السبيل إلى إرضاء هذا الطموح ؟

إنَّها المغامرة وشدَّ الرِّحال إلى بلاطات أصبحت تستقطب العلماء والأدباء والشعراء. وهذا ما حدا بابن وهبون إلى ترك أسرته وبلده وشدَّ الرِّحال إلى إشبيلية (14).

ج - أبعاد رحلته :

لئن كانت مرسية مسقط رأس الشاعر، فإنَّ إشبيلية « بيت شرفه المشهور ومسقط عيشه المشكور طرأ عليها منتحلا للطلب وقد شدا طرفا من الأدب » (15). فما كان حلما لشاعر مثله من أسرة متواضعة يصبح حقيقة في عاصمة بني عباد كعبة الشعراء والأدباء. وهكذا تكون غاية الرحلة طلب العلم والمعرفة ونيل العطاء عند ابن عباد الملك الشاعر الذي عُرِف بالجوهر والسخاء، وقربَّ إليه الشعراء. فكانت هذه الرحلة ببعديها حدثا في حياة ابن وهبون فتح له بكر السبيل وغير ملامح نشأته الأولى في مسقط رأسه حيث كان مغمورا ليصبح واحدا من أهل إشبيلية ذا شرف مشهور يساعده على ربط علاقات مع أهل العلم والأدب والشعر، ومع ذوي السلطان والجاء.

فمع من ربط هذه العلاقات حسب المصادر التي بين أيدينا ؟ وما مدى تأثيرهم في حياة الشاعر بإشبيلية ؟

(10) دائرة المعارف 3/ 987، وخالص : مجلة 12/ 533.

(11) خالص : مجلة 12/ 533.

(12) المصدر نفسه : 534-535.

(13) انظر مثلا القطعة 9 و 41.

(14) إشبيلية : مدينة بالأندلس جلييلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثلاثة أيام، ومن الأميال ثمانون. وهي مدينة قديمة أزليَّة ويقال إن الذي بناها يوليش القيصر. لها سور حصين موفية على النهر الكبير وكان سور إشبيلية من بناء

الإمام عبد الرحمان بن الحكم (الحميري : صفة : 18-20.

(15) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 / م 1 / 474.

3 - علاقته بإشبيلية :

أ - علاقة ابن وهبون ببعض علماء عصره وشعرائه:

- علاقته بالأعلم الشنتمري (16) :

أشرنا ونحن نتتبع نشأة ابن وهبون الأولى في مترسية إلى إجماع الدارسين قدامى ومحدثين على السكوت عن ذكر تربيته وثقافته وشيوخه، ولكن هذا السكوت بدأ ينجلي شيئا فشيئا بمجرد أن طرأ على إشبيلية منتحلا للطلب وهي «أكثر مراكز الثقافة الأندلسية آنذاك ازدهارا وأوسعها مجالا للنشاط الأدبي، حيث اجتمع حول المعتمد ووزيره ابن عمار أكبر شعراء الأندلس وعلمائها في القرن الخامس الهجري» (17). فاتصل بالأعلم الشنتمري «وكان يومئذ زعيم البلد واستاذ ولد المعتمد، فعول عليه من رحلته وانقطع اليه بتفصيله وجملته. وكانت له في أثناء ذلك همة تترامى به إلى العلا ترامي السبيل من أعالي الرّبي» (18). ووجد فيه ضالته المنشودة فجلس إليه ولازمه يتابع دروسه، فكان أول شيخ له في إشبيلية ساهم في صقل ثقافته وتكوينه، وأخرجه من العدم الذي تردى فيه في بيئته الأولى إلى عالم الحياة والشهرة، فأصبح التلميذ مقدما عند أستاذه بعد صحة وانقطاع تأكد فيهما الشيخ من قدرة ملازمه على الشعر». فاتفق أن كتب ابن سراج (19) إلى المعتمد بشعر بائي من شطر الوافر يمدحه فيه. وكأنه - زعموا - عرض بقرنه ومباريه وأعلم بذلك الأعلم، فصمت عن جوابه وأحجم وولأها عبد الجليل، فأطلعه في أفقها قمرا ونبه منه لحربها عمرا (20). فقال قصيدته البائية التي أولها «هُوَى بَيْنَ النُّجُومِ لَهُ قَبَابٌ» (21). فلو لم يأنس الأعلم في تلميذه كفاءة شعرية تمكنه من الرد على قصيدة ابن سراج، ما كان ليحشم ابن وهبون شرف ذلك، خاصة أن القصيدة موجهة إلى ابن عباد، ولعل الأعلم أراد بذلك ربط العلاقة بين هذا الشاعر الناشئ الذي طرأ على إشبيلية يطلب العلم والمعرفة، وبين ابن عباد الملك الشاعر حتى يرضي طموح الشهرة فيه بعد أن أراضى فيه طموح المعرفة والفكر. ولم نعثر فيما بين أيدينا من مصادر ذكرت أخباره على إشارة إلى انقطاع العلاقة بين التلميذ وأستاذه، أو إلى فتورها. بل إن شعره يؤكد خلاف ذلك، فقد رثاه بمطوكة (22) بكاه فيها بكاء مرا، معددا فضائله ومناقبه، وموظفا فيها عصاره تفكيره وتجاريه في الحياة والموت والمصير.

(16) هو أبو الحاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي المعروف بالأعلم : من أهل شتتمرية الغرب، كان عالما بالعربية واللغة ومعاني الأشعار، حافظا لجميعها، كُفَّ بصره في آخر عمره. ولد سنة 1019/410 وتوفي سنة 1083/476 بمدينة إشبيلية . (انظر ابن خلكان الوفيات : 81/7 - 82).

(17) خالص : مجلة 534/12.

(18) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 م 1 / 474

(19) هو أبو مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمود بن سراج، لغوي شاعر ولد سنة 1000/400 وتوفي سنة 1095/489 (ابن بسام: الذخيرة ق 1 م 2 / 810 وابن سعيد: المغرب 1/116)

(20) إشارة إلى قول بشار : الديوان 217.

«إِذَا أَيْقَظَكَ حُرُوبُ الْعَدَا قَبْلَهُ لَهَا عُمَرَا ثُمَّ تَمَّ»

(21) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 م 474/1 - 475

(22) انظر القطعة: 1.

ولعلّ هذا الوفاء بين الرجلين هو الذي ساعد ابن وهبون على الاندماج في الأوساط الأدبية والفكرية التي راجت سوقها في إشبيلية آنذاك، ومكنته من الالتقاء بغير أستاذه الأعلم من شعراء العصر...

علاقته بابن القبطرنة (23):

لئن قصر ابن وهبون علاقته بالأعلم الشنتمري على التلمذة وتحصيل العلم والمعرفة والطمع في التقرب من ابن عباد، فإنّ علاقته بابن القبطرنة تنزلت في إطار الصداقة والفسحة وترويض النفس فقد «ساير الوزير الأستاذ أبا بكر بن القبطرنة وهو غلام يحار مجتليه ويغار غصن البان من تشنبيه، وقد وضع يمينه في شماله وتضوّع عرف آماله والناس ينظرون هلال شوك» (24).

علاقته بغلام البكري (25):

أما علاقته بغلام البكري فتجاوزت المؤانسة والمساجلة بالأشعار في ساعات الفراغ إلى ركوب النهر الكبير ليلا، وتعاطي الخمرة والتمتع بملذات الحياة. فقد «ركب بإشبيلية زورقا في النهر الذي لا تدانينه السراة ولا يضاهيه الفرات، في ليلة تنقبت بظلمتها ولم يبدو وضّح في دهمتها. وبين أيديهم شمعتان قد انعكس شعاعها في اللجة وزاد في تلك البهجة. فقال مرتجلا في الحين (26)، وكان معه غلام البكري معاطيا للراح وجاريا في ميدان ذلك المراح. فلما جاء عبد الجليل بما جاء وحلى للإبداع الجوانب والأرجاء حسده على ذلك الارتجال. وقال بين البطيء والاستعجال» (27).

(الكامل)

- 1 - أعجبَ بِمَنْظَرِ لَيْلَةٍ لَيْلَاءِ
تُجْتَسَى بِهَا اللَّذَاتُ قُوقَ الْمَاءِ
- 2 - فِي زَوْقٍ يَزْقَى بِغُرَّةٍ أَغْيَدِ
يَخْتَالُ مِثْلَ الْبَائَةِ الْغَيْثَاءِ

(23) هو أبو بكر بن القبطرنة أحد ثلاثة إخوة يعرفون ببني القبطرنة. وأبو بكر منهم: وهو عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البظليوسي. كان كاتباً للمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس (1071/464).
1095/488 وهو شاعر وأديب من غرب الأندلس توفي في إمارة علي بن يوسف بن تاشفين بعد سنة 1126/520 (ابن بسام: الذخيرة ق 2 / م 324/1)، المقري: النفع 155/1-156، دائرة المعارف 837/3).

(24) ابن خاقان: القلائد: 278-279، المقطوعة 42. المقري: النفع 268/3.

(25) هو حكم بن محمد أبو الحسن غلام «البكري»: أديب شاعر محسن من شعراء الدولة العبادية. لم تكن له رحلة لسواها ولا قدم في غير ذراها (ابن بسام: الذخيرة: ق 2 / م 563/2، الضبي: البغية: 265، وابن سعيد: المغرب: 348/1-349).

(26) انظر المقطوعة 22.

(27) ابن خاقان: القلائد: 278-279، وابن طافر: البدائع 254-255، والمقري: النفع 657/1.

- 3 - قَرَرْتُ يَدَا الشُّمَعَتَيْنِ بَوَجْهِهِ
كَالْبَذْرِ بَيْنَ النَّسْرِ وَالْجَوَزَاءِ
- 4 - وَالنَّاحُ تَحْتَ الْمَاءِ ضَوْءٌ مِنْهُمَا
كَالْبَرْقِ يَخْفِقُ فِي غَمَامٍ سَمَاءِ

علاقته بابن حمديس (28):

لم نعرش فيما اعتمدنا من مصادر ذكرت أخبار الشاعر إلا على خبر واحد رواه ابن حمديس نفسه تناقله عنه من جاء بعده إذ قال : « صنع لنا الشاعر أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسى بإشبيلية نزاهة في الوادي شهدها جماعة من الشعراء والأدباء والمغنين. فأقمنا من بكرة إلى العشي فبرد الهواء وهبت ريح لطيفة النسيم وصنعت في الماء حبكا جميلا. فقلت عند ذلك للجماعة أجيروا :

حَاكَتِ الرِّيحُ مِنَ الْمَوْجِ زَرَّةَ

فأجاز هذا القسم كل إنسان بما سنح في خاطره. وكان في القوم الشاعر أبو تمام غالب بن رباح، الغالب على اسمه الحجام. فلما سمع ما أتى به كل واحد منهم قال لم يصنعوا شيئا ثم التفت إلي وقال كيف قلت أنت يا أبا محمد، قلت :

حَاكَتِ الرِّيحُ مِنَ الْمَوْجِ زَرَّةَ

فقال مجيزا :

أَيُّ دِرْعٍ لِقَتَالِ لَوْ جَمَعَدُ

فلم نحفظ لأحد منهم مع هذا شيئا» (29).

فهذا الخبر الذي أورده ابن حمديس يدل على مدى الصلة التي تربطه بابن وهبون وعلى اعترافه له بالشاعرية، إذ أضفى عليه لقب الشاعر، وكذلك على منزلته بين شعراء عصره الذين لبوا دعوته وخرجوا معه في نزهة للتمتع بفتنة طبيعة إشبيلية وجمال نهريها البديع.

(28) هو عبد الجبار أبو محمد بن أبي بكر بن حمديس الأسدي، شاعر عربي من جزيرة صقلية. ولد بسرقسطة سنة 1081/447. اتصل بالمتعمد بن عباد وخلد معركة الزلاقة وغادر الأندلس إلى إفريقية والمغرب. كان من المجتهدين في شعره، وفي أشعاره يطفئ طابع الوصف. له ديوان شعر خال من الهجاء توفي سنة 1132/527 (دائرة المعارف 806/3).

(29) ابن حمديس : الديوان 168-169، ابن طافر: البدائع 70-71، المقرئ : النفع 606/3.

علاقته بابن خفاجة (30) :

سكتت المصادر التي اعتمدنا في تتبع أخبار ابن وهبون وعلاقته بابن خفاجة عن تفصيل هذه العلاقة، وأشارت إلى ذكر خبرين رواهما ابن خفاجة نفسه. سنعتمد الأول في هذا المقام، والثاني عند الحديث عن وفاته. قال ابن خفاجة : « صاحبت في صدري من المغرب سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة أبا محمد عبد الجليل بن وهبون شاعر المعتمد.

وكان أبو جعفر ابن رشيقي (31) يومئذ قد تمّنع ببعض حصون مرسية. وشرع في النفاق وقطع السبيل وإخافة الطريق. ولما حاذينا قلعتيه وقد احتمدت جمرة الهجير، وملّ الركب رسيمة وذميلة، وأخذ كل منا يرتاد مقبله، اتفقنا على أن لا نطعم طعاما ولا نذوق مناما حتى نقول في صورة تلك الحال وذلك الترحال ما حضر. وشاء الله أن أجبل ابن وهبون فاعتذر وأخذت عفو خاطري فقلت أريض نار نزوته وأعرض بعظيم لجبته :

(الوافر)

- 1 - أَلَا قُلْ لِلْمَرِيضِ الْقَلْبُ مَهْلًا
فَإِنَّ السَّيْفَ قَدْ ضَمِنَ الشُّفَاءَ
- 2 - وَلَمْ أَرَ كَالنَّفَاقِ شَكَاةً غَرُرُ
وَلَا كَنَدِمِ الْوَرِيدِ لَهُ دَوَاءَ
- 3 - وَقَدْ دُحِيَ النَّجِيعُ هُنَاكَ أَرْضًا
وَقَدْ سَمَّكَ الْعَجَّاجُ بِهِ سَمَاءَ
- 4 - وَدَيْسَ بِهِ انْحِطَاطًا بَطْنَنَ وَادٍ
قَدْ اعْتَشَبَ شَعْرُ لِحْيَتَيْهِ ضَرَاءَ (32)

فهذه الصحبة تبدو مخالفة لنظائرها، إذ أنها تأتي في أحلك فترة من فترات حكم ابن عباد ولي نعمة ابن وهبون. وكأنّ الشاعر أحسن بدنو أجله وأقول نجم صاحب الفضل عليه، فلم يعد ذلك التفتائل المولع بركوب النهر والقائل الشعر والمتمتع بملذات الحياة، بل أصبح إنسانا واجما ومصدر تهكم وتعريض.

(30) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح الخفاجي ولد سنة 1058/450. في عائلة ميسورة وتوفي سنة 1138/533. طرق كل أغراض الشعر وتغنى بالطبيعة وبها عرف حتى لقب بالجنان، يعدّ ديوانه من أكمل دواوين شعراء الأندلس. (دائرة المعارف 846/3).

(31) هو أبو محمد عبد الرحمان القشيري. حكم مرسية من سنة 1081/474 إلى سنة 1088/481. أودعه ابن عباد السجن بتهمة التعاون مع النصارى في محاصرة حصن لبيط، وقيل قتله، وقيل أيضا فكّ المرابطون أسره بعد أن استولوا على إشبيلية سنة 1091/484 ولا شيء يعرف عنه بعد هذا التاريخ (دائرة المعارف: 929-928/3).

(32) ابن خفاجة : الديوان 367-368، المقرئ : النفع : 318-319.

ب - علاقة ابن وهب بن بدوي السلطان

- علاقته بابن عمار (33) :

تشير المصادر التي بين أيدينا إلى وجود علاقة وثيقة بين الشاعر وذو الوزارتين ابن عمار. ولعل ذلك يعود إلى قائل النشأة والميول. فكلاهما من أسرة فقيرة، يبحث عن المجد والشهرة في ظل بني عباد، فتم لابن عمار شرف الوزارتين بحكم ذكائه ودهائه وقرسه بالسياسة حتى «اشتمل عليه المعتمد على الله بن عباد وأنهضه جليسا وسميرا وقدمه وزيرا ومشيرا» (34)، ولابن وهب شرف القلم والكلمة حتى غدا شاعر بلاط ابن عباد الرسمي.

وحاول ابن عمار أن يختصّ بابن وهب «فأعلقه بدولته وألحقه بجملته، ونفقه بعد الكساد وطوقه من استخلاصه ما أغاظ به الحساد، وكان يعتقد تقدمه ويعقد بنواصي الشعراء قممه» (35). وتعود جذور هذه العلاقة إلى تلك القصيدة التي ردّها على قصيدة ابن سراج بأمر من أستاذه الأعمى الشنتمري والتي «لما سمعها ابن عمار خادم الدولة يومئذ طار بذكره وأجناه ثمارها وباهى به أقمارها وخلع عليه أصانلها وأسحارها» (36) و«عرفه بالمعتمد حتى استخلصه لنفسه وأحضره مجالس أنسه» (37). وإن كان بعضهم يرى عكس ذلك فهو «لم يوصله عند المعتمد إلى حظ ولم ينله منه إلا كرة لحظ» (38)، ذلك أن ابن عمار «كان لا يألو جهدا في وضع العقبات أمام صديقه الشاعر، لكي لا يلتقي بالمعتمد خشية ما يمكن أن يكون لهذا اللقاء من نتائج في توثيق علاقة ابن وهب بالملك وزيادة نفوذه لديه» (39).

ونحن لا نظمئن كشيبرا إلى هذه الرواية الثانية بدليل أن ابن وهب بقي وفيبا «صديقا» (40) و«صاحباً» (41) لابن عمار، حتى اعتبره بعضهم «صنيعته» (42). فقد «كان متعصبا مائلا إليه، إذ كان الذي جذب بضبعه ونوّذ بذكره ونفّق من شعره» (43).

(33) هو ذو الوزارتين أبوبكر محمد بن عمار المهري الأندلسي الشلي، ولد سنة 1030/422 في أسرة فقيرة من أصل يمنّي. اتصل سنة 1033/445 بالمعتمد ومدحه فأعجب به وقربه وأنهضه جليسا وسميرا وقدمه وزيرا ومشيرا، ثم خلع عليه خاتم الملك ووجهه أميرا، فحاول الاستنثار بمرسية فقتله المعتمد بيده سنة 1086/479 (انظر ابن خلكان: الوفيات 425/4 ودائرة المعارف: 728-727/3).

(34) ابن خلكان : الوفيات : 425/4.

(35) ابن خاقان : القلائد : 278.

(36) ابن بسام : الذخيرة : ق 2، م 1 / 475.

(37) المصدر نفسه : 431.

(38) ابن خاقان : القلائد : 278.

(39) خالص : مجلة : 542/12.

(40) المراكشي : المعجب : 103 وعنان : دول : 427.

(41) ابن خلكان : الوفيات : 426/4.

(42) ابن سعيد : المغرب : 391/1.

(43) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 / م 1 / 431.

ومهما اختلفت الروايات واجتهدنا في ترجيح هذه على تلك، فإننا نعتبر شعره الفيلص في ذلك. فقد دلّ على أن العلاقة بين الرجلين كانت وثيقة، فقد خصه بقصيدة مدحية (44) لا تقل قيمة عن مدائحه في ابن عباد، وبمرثية (45) حين قتله المعتمد غاضبا عليه وحائقا. فلولا اعتراف ابن وهيون بفضل ابن عمار ووفائه لهذه العلاقة التي ربطت بينهما ما كان ليجرؤ على رثائه في حزن ومرارة وفي تقيّة واحتراز، مخافة أن يحفظ صدر ابن عباد ويغيظه وقد أجهز على وزيره بيده. ولم تكن هذه العلاقة أحادية الجانب، فكلاهما كان يعترف للآخر بالفضل، ذلك أن ابن عمار «كان كلما مرّ ذكر عبد الجليل ألقى بيديه وشهد له بالفضل عليه» (46).

• علاقته بابن صّادح (47):

بدأت شهرة ابن وهيون تحتاز حدود إشبيلية بعد أن أجازه شيخه الأعلام الشنتمري، وشهد له بالفضل ذو الوزارتين ابن عمار، واشتمل عليه بلاط ابن عباد كما سيرد ذلك في علاقته به، فصادف أن اجتاز يوما بالمرية (48) فحاول ملكها استقطابه وبعث فيه «فتأخر وزرى بالحال وسخر وقال: أبعد المعتمد أحضر منتدى أو استمطر جودا أو ندى، وهل تروق الأعياد إلا في فئانه، أو تحسن الأمداح الآفي سنّاته (49) وهو - أي المعتمد - «يومئذ قبلة الأمال وقطب رحي الأمال ومرمى جمار المدائح... اهتزّ لعبد الجليل وعرض له بجملة وافرة من عرض دنياه فلم يعرج على صفده» (50). وهكذا لم يشأ ابن وهيون أن يكدر صفو علاقته بابن عباد بربط صلة مدحية بابن صّادح. ولما دنا العيد بادر بالارتحال عن بلده. وقال في ارتحال (51) يتشوق إلى ابن عباد.

• علاقته بابن عبّاد (52)

لا إشارة فيما بين أيدينا من مصادر إلى تحديد الفترة التي تم فيها اللقاء بين الشاعر وابن عبّاد. وإنّما يمكن أن نؤكد أن ذلك تم قبل وفاة أستاذه الأعلام الشنتمري سنة 1083/ 476 إذ هو الذي فسح له المجال للرد على قصيدة ابن سراج، فنظم ابن وهيون البائية في مدح ابن عباد، فطار ابن عمار خادم الدولة بذكره «ووافق من المعتمد ناقدًا بصيرا وعاشقا قديرا،

(44) انظر القطعة : 4.

(45) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 / م 1 / 435-434.

(46) ابن بسام : الذخيرة ق 2 / م 1 / 435-434.

(47) هو أبو يحيى محمد بن مغن بن محمد بن أحمد بن صّادح المنعوت بالمعتمد التجيبي صاحب المرية من بلاد الأندلس ت. سنة 1091/484 بالمرية (ابن خلكان الوفيات : 39/4).

(48) المرية : مدينة محدثة، أمر ببنائها أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمان بن محمد سنة 955/ 344 من أشهر مراسي الأندلس عليها سور حصين منيع (الحميري: الصفة 183).

(49) ابن خاقان : الثلاث 280.

(50) ابن بسام : الذخيرة ق 2 / م 1 / 475.

(51) انظر القطعة 12.

(52) هو محمد بن عباد بن إسماعيل بن عباد المعتمد على الله من أسرة عربية الأصل. ولد بإشبيلية سنة 1039/431. ورث الملك عن أبيه وكان شاعرا وأديبا. توفي أسيرا في أغمات سنة 1095/488 بعد أن استولى ابن تاشفين على إشبيلية عاصمة ملكه سنة 1091/484 (السريسي: ديوان المعتمد 6).

فأغلى بتلك الأعلاق، وأقام له الدنيا على ساق» (53). وأصبح من جملة الشعراء الذي ضمهم بلاط ابن عباد (54)، وانقطع إليه انقطاعاً تاماً إخلاصاً ووفاءً «فلم يرحل إلى ملك سواه» (55) ولأدّل على ذلك من رفضه لمحاولة استقطابه من قبل ابن صمادح (56).

وتوثقت العلاقة بينهما حتى استحالت صحبة ومعاشرة. فكان ابن وهبون شاعر البلاط الرسمي في إشبيلية يغذق عليه ابن عباد العطايا والهدايا (57). ويتمتع إلى جانب ذلك براتب شهري (58). ويسامر الملك ويناديه (59)، ويعرض عليه أشعاره، فمما يروى أنه «مدح المعتمد بن عباد بقصيدة فيها تسعون بيتاً، فأجازه بتسعين ديناراً فيها دينار مقروض.

فلم يعرف العلة في ذلك إلى أن تأملها إذاً هو قد خرج من العروض الطويل في بيت إلى العروض الكامل فعرف حينئذ السبب (60).

ولم تقف هذه العلاقة عند هذا الحد من الامتاع الذي شغل جانباً من حياة ابن عباد وشاعره الرسمي، بل إن الأمر جاوز ذلك إلى ما هو مصيري في حياة السلطان ودولة بني عباد آنذاك، وكانت تهددها أطماع النصارى من الخارج والفتن من الداخل (61). فكان ابن وهبون خير حليف ونصير لابن عباد في محنته ودفاعه عن ملكه. شاركه الحرب ضد أعدائه ووصف ركوبه البحر (62)، يستنجد بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين (63). ووصف الأسطول الإشبيلي (64)، وخلص مآثره الحربية (65). وكان من جملة مهنتيه بالفتح والنصر في معركة الزلاقة (66). ذكر ياقوت أنه لما دخل ابن عباد إشبيلية جلس للناس وهنئ بالفتح وقرأت القرأء وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه، قال عبد الجليل بن وهبون حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدته إياها فقرأ القارئ «إلا تنصروهم فقد نصرة الله» (67)، فقلت بعدك لي ولشعري. والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به» (68).

-
- (53) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 / م 1 / 475
(54) السوسي : ديوان المعتمد : 10.
(55) ابن بسام : الذخيرة : ق 2 / م 1 / 475.
(56) انظر الهامش 1 ص 27.
(57) انظر على سبيل المثال لا الحصر القطع 39، 41، 47.
(58) النظر القطعة 19.
(59) النظر القطعة 32.
(60) السلني : الأخبار : 19.
(61) الحميري : الصفة : 83.
(62) انظر القطعة 26.
(63) هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني أمير المسلمين توفي سنة 1106/500 (ابن خلكان : الوفيات : 112/7).
(64) انظر القطعة 36.
(65) انظر على سبيل المثال لا الحصر القطعة 45.
(66) وقعت هذه المعركة سنة 1086/479 بين جيش المسلمين المتكون من الأندلسيين والمرابطين وبين النصارى بقيادة ألفونسو السادس (الفتح : 370/4).
(67) سورة التوبة ، الآية 40.
(68) ياقوت : معجم البلدان 518/1.

وهكذا تكون علاقته بابن عباد مخالفة لنظائرها مع غيره من ذوي السلطان. فقد انقطع إليه ولازمه وتغنى بأمجاده ويطولاته، وخلّد جانباً من حياته فرضته عليه أحداث العصر، الذي شهد انحلالاً سياسياً غذاه الصّراع الداخلي على السلطة من جهة والأطماع الخارجية التي تسعى إلى محو الذات العربيّة في الأندلس من جهة أخرى.

4 - ابن وهبون «الإنسان» من خلال أخباره:

لم يُوصلنا البحث والتقصي لأخبار الشاعر في المصادر التي ترجمت له، وذكرت أخباره إلى استجلاء صورة متكاملة عن حياته في طورها الأول في مسقط رأسه مرسية. فكان بحق رجلاً مغموراً. وقد عزّا بعضُ الدارسين المحدثين ذلك إلى انتماؤه إلى أسرة فقيرة متواضعة. وكثّر نروم أن تتضح معالم حياته وشخصيته في طورها الثاني في إشبيلية «بيت شرفه المشهور ومسقط عيشه المشكور» (69). فكاد التقصي لأخباره يوصلنا إلى ما أوصلنا إليه في طور حياته الأول، غير أنه أوقفنا على بعض الإشارات والومضات كشفت لنا حجاب الستر عن بعض الجوانب من شخصية ابن وهبون الإنسان في الطور الثاني من حياته في إشبيلية. فارتأينا أن نقسمها إلى محورين حتى تكون معالم شخصيته أكثر وضوحاً وتكاملاً.

أ - صفاته :

أجمعت بعض المصادر التي ترجمت له على أنه كان كبير الرأس عظيمه حتى عرف بالدمغة (70). وقد جاء في لسان العرب «دمغه دمغا: شجّه حتى بلغت الشجة الدماغ... ودميغ الشيطان نبز رجل من العرب كان الشيطان دمغه (71)». ويبدو من هذا التحديد أن لقب الدّمغة كان ينيز به ابن وهبون سخرية وتهكماً.

وتتنضاف إلى هذه الصفة صفتان ذكرهما ابن خفاجة : تتمثل الأولى (72) في كونه كان كثير التطير، والثانية في عظم لحيته (73).

والمتتبع لعلاقاته بذوي السلطان والجاه وشعراء عصره، يلاحظ أنه كان طموحاً راغباً في الشهرة المادية والأدبية. وقد تجشم في سبيلها عناء الرحلة ومشاقها من مرسية إلى إشبيلية. ولئن أكّدت بعض المصادر على عودته السنوية إلى مسقط رأسه لتعهد أهله، فإنها سكنت عن الحديث عن امكانية زواجه أو عقبه، مما حدا بنا إلى استنتاج أنه كان غير راغب في المرأة، وأنها لا تحتل في قلبه منزلة. ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه خلو أشعاره تقريباً من ذكر امرأة بعينها والتغزل بها كما يفعل غيره من الشعراء.

(69) ابن بسّام : الأخيرة : ق 2 / م 1 / 474.

(70) الأخيرة : 479/1/2.

(71) ابن منظور : اللسان 1، 1012.

(72) ابن خفاجة : الديوان 135.

(73) ابن خفاجة : المصدر نفسه 367.

ب - أخلاقه وميوله :

بدا ابن وهبون - الذي عرفناه في مرسية حامل الذكر محروما - في إشبيلية ميّالا إلى التره (74) والتمتع بجمال الطبيعة صحبة أصدقائه في ساعات الفراغ، كما بدا كلفا بالتمتع بلذات الحياة (75) التي لم تتوفر له في مسقط رأسه أثناء نشأته الأولى، فحاول أن يسرق من الدهر لحظات تعويضا عن حرمانه السابق.

وما كان جانب اللهو والمتعة بقادر على احتوائه والسيطرة على أخلاقه وميوله، بل كان ابن وهبون شديد التعلق بموطنه دائم الحنين إليه (76) وفيّا لكل من ربطته به علاقة درس وعلم (77) أو صداقة (78) أو نعمة وفضل (79) غيورا على عرويته وإسلامه (80).

5 - وفاة ابن وهبون:

تضاربت الروايات في مصادر البحث ومراجعته في تحديد سنة وفاة الشاعر : فمنها ما أشار إلى أنها تمت سنة 1078/480 (81) بدران تعليل، ومنها ما أكد أنها كانت سنة 1090/483 (82) اعتمادا على خبر رواه ابن خفاجة (83)، ومنها ما قدّر أن تكون سنة 1091/484 (84)، ومنها ما ارتأى أن تكون بالضرورة سابقة لوفاة ابن خفاجة (85).

وأمام هذا التضارب بين التواريخ حاولنا ترجيح واحد منها معتمدين على خبر رواه ابن بسام إذ قال «ولما ابتدأت الفتنة بالمعتمد، بادر الخروج عن البلد، فلم يغن عنه نفاذه وأدركه مقداره على قرب من مرسية. لقي قطعة من خيل النصارى فتورط فيهم وقضى له بالشهادة على أيديهم» (86)...

والثابت تاريخا أن ابن تاشفين «وصل إلى إشبيلية وبها المعتمد فحاصره أشد محاصرة وظهر من مصابرة المعتمد وشدة بأسه وتراميه على الموت بنفسه ما لم يسمع بمثله والناس بالبلا

(74) دائرة المعارف : 806/3.

(75) انظر علاقته بابن القبطنة ص 48.

(76) الذخيرة : 475/1/2

(77) انظر علاقته بالأعلم الشنمري ص 47.

(78) انظر علاقته بشعراء عصره ص 47.

(79) انظر علاقته بابن عمار وابن عباد ص 51 و ص 52.

(80) انظر على سبيل المثال لا الحصر القطع 20، 26، 45.

(81) الضبي : البغية 375، وبان دحية : المطرب 118، وغوسن: الشعر الأندلسي 24.

(82) ابن خاقان : القلائد 267، وابن طافر: البدائع 376 وفروخ : أدب 664/4.

(83) ابن خفاجة : ديوانه : 135-136.

(84) ابن بسام : الذخيرة ق 2/م 475-477، والسعيد: الشعر 293، وخالص: مجلة 556/

12، ودائرة المعارف 988/3.

(85) البستاني : دائرة البستاني : 142/4.

(86) ابن بسام : الذخيرة ق 2 / م 1 / 476.

قد استولى عليهم الفزع وخامرهم الجزع يقطعون سبلها سياحة ويخوضون نهرها سياحة ويترامون
من شرفات الأسوار فلما كان يوم الأحد العشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة هجم
عسكر الأمير يوسف البلد وشنوا فيه الغارات ولم يتركوا لأحد شيئا وخرج الناس من منازلهم
يسترون عوراتهم بأيديهم وقبض على المعتمد وأهله» (87).
وهكذا نلاحظ أن ابن وهبون قتل بعد فراره من إشبيلية عندما حاصرها المرابطون. وبذلك
تكون وفاته سنة 1091/484 أو قبلها بقليل.

(يتبع)

(87) ابن خلكان : الرقيات 30/4.